المحاضرة العاشرة

التصوير الفني في الحديث النبوي

محاضرة التصوير الفني في الحديث الشريف[1]

إن من أجلّ خصائص أسلوب الحديث النبوي الشريف القدرة الرائعة على التصوير الموحي والتشبيه الموضح، مما يدل على موهبة فذة، دانت لها الصور الجميلة، ودنت منها فاقتطفت ما رقّ منها وما راق، فأنت – في الحديث – أمام لوحات فنية رائعة، ممتعة ساحرة، تعجز مواهب الدنيا أن تأتي بأروع منها وأبدع، يفيض هذه اللوحات والمشاهد خيال واقعي خصب.

وإن وفرة الصور الجميلة لتدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤثر التعبير عن المعنى المجرد بالصورة الحسية المستمدة من حياة المخاطبين، لأن ذلك أدعى إلى أن يفهموا مراده ويتأثروا به، ولأن الصورة البيانية تزيد في قيمة الأثر الأدبي، وترفع من شأنه، وتكسو المعاني أبهة وتضاعف قواها في تحريك النفوس لها.

وفي الأحاديث النبوية طرائق متعددة في التصوير الموفق: منها مشاهد تصويرية تعتمد القصة السريعة تارة، والموقف تارة أخرى، ومنها التشخيص الحي الذي يبث الحياة والحركة في الكائنات الجامدة، ومنها التشبيه الذي يقرب الأمر ويوضح الموضوع وهو كثير جدًا، ومنها الكناية المهذبة اللطيفة ... إلخ.

عناية النبي ﷺ بالتمثيل والتصوير:

استعان النبي ﷺ في قيامه بمهمة التبليغ التى كلفه الله بها بشتى أساليب الإيضاح والتعليم، ومن أهمها وسيلة "التصوير وضرب المثل"، فضرب الأمثال فى البيان النبوي لم يأتِ لغاية فنية بحتة كغاية الأدباء في تزيين الكلام وتحسينه، وإنما جاء لهدف أسمى، وهو إبراز المعاني في صورة مجسمة لتوضيح الغامض، وتقريب البعيد، وإظهار المعقول فى صورة المحسوس، كما أن ضرب الأمثال أسلوب من أساليب التربية يحث النفوس على فعل الخير، ويحضها على البر، ويدفعها إلى الفضيلة، ويمنعها عن المعصية والإثم، وهو فى نفس الوقت يربي العقل على التفكير الصحيح، والقياس المنطقي السليم، لأجل ذلك ضرب النبي طائفة من الأمثال فى قضايا مختلفة، وفى مواطن متعددة. ولما كان الهدف من ضرب الأمثال هو إدراك المعاني الذهنية المجردة وتقريبها من العقل، وتكوين صورة لهذا المعنى فى المخيلة ليكون التأثير بتلك الصورة أشد وأقوى من الأفكار المجردة كثر الاعتماد على هذا الأسلوب فى القرآن. حتى ضربت فيه الأمثال ببعض الأشياء التافهة كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا...﴾ والرسول كان يمر بآيات الأمثال المضروبة للناس ويجد أثرها في الرد والتحدي، والترغيب والترهيب، وكان يعرف دور المثل ومكانته عند قومه، فلا غرابة إذاً أن يحظى المثل باهتمامه ﷺ ما دام وسيلة من الوسائل التى تعينه على أداء هذه المهمة.

والمتأمل فى الأمثال والتصاوير النبوية يجد التنويع صفة ظاهرة فيها، فقد ضرب المثل فى موضوعات متعددة ولأغراض شتى من أمور العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والزهد، والعلم، والدعوة، وفضائل

---

[1] المحاضرة مستقاة من عدة مصادر مع التصرف، ولمن أراد الاستزادة الرجوع إلى:

- الخصائص البلاغية للبيان النبوي. للدكتور محمد الحمزاوي. (مكتبة الرشد.١٤٢٨هـ).
- الحديث النبوي: مصطلحه، بلاغته، كتبه. محمد الصباغ.

الأعمال، والترغيب والترهيب، وغير ذلك. ونوع كذلك فى أسلوب العرض وطريقة ضرب المثل، فاتخذ لضربه طرقاً متعددة، وأساليب مختلفة، وسلك فى ذلك كل ما من شأنه إيضاح المراد وإبرازه ماثلاً أمام الأعين، فمن ذلك استخدامه للإشارة التى تلفت أنظار السامعين، وتعينهم على الفهم، وفيها يشترك أكثر من حاسة فى العملية التعليمية، فالناظر يرى الإشارة ويسمع العبارة، فيكون ذلك أدعى للتذكر كما في البخاري فى حديث الإشارة بالإصبع إلى قرب الساعة، ومن ذلك استعانته بالرسم التوضيحي كوسيلة من وسائل التعليم والإيضاح عندما تحدث عن قضية اتباع سبيل الله وصراطه المستقيم، والتحذير من سبل الشيطان الأخرى.

وقد حرص النبي ﷺ على ضرب المثل فى الأحداث والمواقف المتعددة لأهداف تربوية، ففي بعض المواقف كان يكفيه ﷺ أن يرد رداً مباشراً لكنه آثر ضرب المثل لما يحمله من توجيه تربوي، وسرعة فى إيصال المعنى المراد، وقد لا يؤدي غيره دوره فى هذا المقام، فيراه الصحابة مرة نائماً على حصير وقد أثر فى جنبه فيقولون له: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فيقول: "**مالي وللدنيا؟، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها** " وحتى المشاهد التى تمر فى حياة الناس فلا يلتفتون إليها، ولا يلقون لها بالاً يجد الرسول فيها أداة مناسبة للتوجيه والتعليم، وضرب الأمثال بها.

ويلاحظ على التصوير النبوي ارتباطه بالواقع والبيئة من خلال الأمثال التى ضربها، والتشبيهات التى صاغها، وهذا مما يرسخ المعاني فى الأذهان، ويؤنس النفوس لما للمعنى من صلة بالواقع. والأمثلة واضحة على ذلك. ويلاحظ كذلك الدقة فى اختيار الألفاظ التى تتركب منها الصورة مع مراعاة الإيجاز في تركيب الصورة حتى يسهل حفظها، ونقلها عند الحاجة، وهذا مما يسر نقل كثير من أحاديث التصوير النبوي.

أسباب تأثير التمثيل والتصوير:

ذكر الإمام عبد القاهر عن تأثير التمثيل عدة أسباب:

أولها: نقله النفس من العقلي إلى الحسي، ومن النظري إلى الضروري، وذلك مما يوجب لها أنساً بالمعنى، وثقة به، واطمئناناً إليه. والسر فى ذلك أمران: أحدهما: أن العلم الثاني وهو الحسي الضروري أقوى من العقلي والنظري، وأشد استحكاماً، ولذلك يقولون: ليس الخبر كالمعاينة، ولا الظن كاليقين. فإذا جئت بالمثل عقب المعنى أو أبرزت المعنى فى معرضه أنست إليه النفس ووثقت به، وقبلته مطمئنة، إذ رددتها إلى ما هي به أعلم، وثقتها به أحكم. ثانيهما: أن العلم الحسي والضروري أسبق حصولاً للنفس من العقلي والنظري؛ لأن العلمين الأولين وسيلتها إلى العلمين الأخيرين، وطريق حصولهما لها.

ثانيهما: من أسباب تأثير التمثيل أنه كثيراً ما يجمع بين أمرين متنافرين مختلفين. وسر تأثير ذلك: أن تصيد الشبه للشيء من غير جنسه واجتلابه له من غير مظنته، والتقاطه من المكان القصي حتى ترى به الأمرين مثلين متباينين، ومؤتلفين مختلفين، باب آخر من الظرف واللطف، ومذهب من مذاهب الإبداع

والافتنان، وفيه من الطرافة والغرابة ما لا يخفى موضعه من العقل، وما يدعو محالة للاستحسان، ويثير كامن الارتياح، ويتألف نافر المسرة.

ثالثهما: أنه يحتاج إلى إعمال الفكر، وتحريك الخاطر، وبذل الهمة من كل من منشئه وسامعه، فالأول محتاج إلى ذلك في الغوص عليه، والاهتداء إليه، ثم فى صوغه والإبانة عنه، والثاني يحتاج إلى ذلك فى فهمه وإدراك سره، واجتلاء حسنه، وذلك ما يجعله فى النفس أحلى، وبالميزة أولى. وسر ذلك. ما هو مركوز فى الطباع من أن الشئ إذا نيل بعد طلبه والشوق إليه، والحنين له كان موقعه من النفس أعظم مما لو حصل عفواً بلا عناء ولا طلب.

تحليل شواهد حديثية تقوم على التصوير الفني

الكناية:

(١) كناية عن صفة:

قوله صلى الله عليه وسلم: "يا عدي إنك **لعريض الوساد**" كناية عن بله الإنسان وقلة فطنته. وذلك أنه ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى {وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود} فجعل عدي بن حاتم خيطين في يده أحدهما أسود والآخر أبيض علامة للفجر، فحكى ذلك لرسول الله، فقال له قوله المذكور.

(٢) كناية عن موصوف:

وهو كثير في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، منه قوله لأنجشة: "يا أنجشة رفقًا **بالقوارير**" فكنى بها عن النساء، وهي كناية لطيفة ودقيقة تدل على رهافة ذوق النبي في التعبير عن المرأة وحال ضعفها. ومنه أيضًا قوله صلى الله عليه وسلم حين رأى أهل مكة في غزوة بدر يتقدمون يريدون لقاءه للحرب: "هذه مكة قد ألقت إليكم **بأفلاذ كبدها** يريدون أن يحادوا الله ورسوله" فكنى الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله (أفلاذ كبدها) عن الرؤساء الأكابر؛ لأن الكبد من أهم أعضاء جسم الإنسان وأعزها فكنى بها عنهم.

(٣) كناية عن نسبة:

قوله صلى الله عليه وسلم: "الخيل **معقود في نواصيها** الخير" فهنا يصرح بالصفة وهي (الخير) ولكنه ينسبها إلى نواصي الخيل ويقصد بذلك أن الخيل منسوبة إلى الخير.

التشبيه:

(١) التشبيه التام:

قوله صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمن مثل السنبلة تستقيم مرة وتخر مرة" فقد شبه المؤمن بالسنبلة، ووجه الشبه الاعوجاج والاستقامة، والمعنى أن المؤمن في تصرفه لا يخلو أن يكون مستقيمًا على الدين، أو يكون مقارفًا للذنب.

(٢) التشبيه التمثيلي:

قوله صلى الله عليه وسلم: "مثل الذي لا يتم ركوعه وينقر في سجوده مثل الجائع الذي يأكل التمرة والتمرتين لا يغنيان عنه شيئًا" فحال المؤمن الذي لا يتم صلاته مثل حال الجائع الذي يأكل تمرة أو تمرتين فلا تسكت جوعه ولا تغنيه.

(٣) التشخيص:

وردت في أحاديث رسول الله تشبيهات قامت على التشخيص وبعث الحياة والحركة في الجمادات، منها قولة صلى الله عليه وسلم: "ورجل تصدق بصدقة فأخفاها فلم تدر شماله ما أنفقت يمينه" نحن هنا أمام يد ليست كالأيدي، إنها يد تعرف وتدري، وكقد كان ذاك الرجل موفقًا عندما استطاع إخفاء الصدقة عن تلك اليد. لقد نفخ هذا الحديث الحياة في اليد فأضحت شخصًا. هذا وفي مجموع الجملة صورة بالغة الدلالة في الإخفاء، أجل لقد تمت الصدقة ولم يدر بها أحد، بل لم تدر اليد الشمال مافعلت اليد اليمين.

الاستعارة:

روى الإمام البخاري فى صحيحه عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان ؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لايحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار"، فقد استعار الحلاوة للإيمان على سبيل المجاز، وفي ذلك تلميح إلى قضية المريض والصحيح ؛ فالمريض يجد طعم العسل مرّاً بخلاف الصحيح ، فكلما نقصت الصحة نقص ذوقه بقدر ذلك ، وتسمى هذه الاستعارة تخييلية وذلك أنه شبَّه رغبة المؤمن في الإيمان بالعسل ونحوه ثم أثبت له لازم ذلك وهي الحلاوة وأضافه إليه.